الملخّص

يسعى هذا البحث إلى تحليل خبرٍ تُراثيٍّ من كتاب (الــمُنتقى من أخبار الأصمعي) للمَقدِسيّ، وهذا الخبر عن قصّةِ امرأةٍ عجوز أنشأتْ خِطابًا بلاغيًّا في حوارها مع عبد الله بن جعفر بن أبي طالِب – رضي اللهُ عنه– لإنجازِ مَقاصِدها الاجتماعية. وقد اعتمدتُ المنهج التداولي وَفق نظرية الأفعال الكلامية ونظرية الاستلزام الــمُحادَثي بما فيها من مَبدأ التّعاون.

يهدف هذا البحث إلى: أوّلاً: اكتِشاف بِنية السّياق الــمُبتَكَرة الذي أنشأتْهُ المرأة في خِطابها لتحقيق أفعالها الإنجازية، ومَقاصدها الــمُعلَنة والــمُضمَرة. ثانيًا: مُراقبة توليد الأفعال الكلامية التّخييلية لأفعال كلامية أخرى وتأثيرات تلفُّظية وسلُوكية تُنجِزها. ثالثًا: التعرُّف على توجيهات الاستِلزامات الــمُحادَثية في الموقف التلفُّظيّ الخاص بالخطاب في ذلك الخبر.

الكلمات المفتاحية: خبر–الأفعال الكلامية– الاستلزام المحادثي–مبدأ التعاون

Abstract

This research is to analyze a traditional Averral from the book (Al-Muntaqa min Akhbar Al-Asma'ei) by Al-Maqdisi. This Averral is narrating the story of an old woman created a rhetorical discourse while she gets a dialogue with Abdu Allāh Bin Ja'afar Bin Abi Tālib -May Allāh be pleased with them- for performance her social intentions.

The method of this research is working in pragmatics field by using the theory of Speech Acts and the theory of Conversational Implicature including the principle of Cooperation.

This research aims to: First: discover the creativity structure of context that woman created in her speech to achieve her performative Acts and her explicit and implicit intentions. Second: monitor the generating of imagery speech acts to other speech acts and performative enunciatory and behavioral acts. Third: recognize the orientations of Conversational Implicatures in the enunciatory situation which owned by the discourse in that Averral.

Keywords: Averral-Speech Acts-Conversational Implicature-principle of Cooperation

المقدّمة

في أثناء مُطالعتي كتُب الأخبار في التراث العربي؛ استوقفني خبرُ قصةٍ من القصص في القرن الهجري الأوّل في كتاب (المنتقى من أخبار الأصمعي) أبي سعيد؛ عبد الملك بن قُريب ابن أصمع (١٢٢-٢١٦ه) للحافظ؛ ضياء الدين؛ محمد بن عبد الواحد المَقدسيّ (٥٦٩-٦٤٣هـ) الذي انتقاه من كتاب (أخبار الأصمعي) للقاضي أبي محمد؛ عبد الله بن أحمد الرّبعي (٢٥٥-٣٢٩هـ)، بتحقيق: عزّ الدين التنوخيّ - رحمه الله- عام ١٣٥٤هـ، والتحقيق يشمل ما بقي من كتاب (المنتقى من أخبار الأصمعي) الذي فُقِد معظمُه[1]. وقد لفتني إلى ذلك الخبر ما فيه من حَبْكٍ للمسارات التلفّظية فيه؛ انطلاقًا من المرأة المتكلِّمة إلى المخاطَب المشترِك المتفاعِل معها؛ وهو الصحابي/عبد الله بن جعفر بن أبي طالب (٢هـ-٨٠ه) - ﷺ- حيث بلاغة التلفّظ، والسرد، والإيحاء، والتأويل، والإنجاز؛ المتبادَلة بين المتخاطِبَين بما هو أعلى من مستوى الخِطاب الاجتماعي المتوقَّع في مثل مواقِف السؤال لقضاء الحاجة، وسَدِّ الخَلَّة.

من هنا جاءت دراسة ذلك الخبر من جهة الأفعال الكلامية المكوِّنة لـمَتنِه، ومن جهة الاستلزام الـمُحادَثي القائم على مبدأ التعاون، وما في ذلك من الحُمولات الدّلالية بمعانيها الصريحة والضمنية، والمحتويات القضوية، والمقاصد الـمُعلَنة والـمُضمَرة التي تتوازى في لَفْت الـمُحلِّل إليها على مستوى السياق اللغوي الداخلي، وعلى مستوى السياق التداولي الخارج عن حدود لُغة النصّ. وبما أنّ سُلطة الخِطاب في ذلك الخبر قد بدتْ ناشِئةً من مشروع التلفُّظ لدى المرأة الـمُتكلِّمة مع أنّها ذات المنزلة الدّنيا في سياق الخِطاب، فقد جاء هذا من بواعث دراسة هذا الخبر دراسةً تداوليّةً تقوم على نظرية الأفعال الكلامية ونظرية الاستلزام الـمُحادَثي.

في إطار الدراسات السابقة، فقد بحثتُ عن دراساتٍ نقديةٍ لهذا الخبر، ولم أجد -في حدود بحثي وتفتيشي- أيّ دراسةٍ نقديّةٍ له وفق المنهجية المحدّدة.

وأما فيما يتصل بالأهداف التي تشغل هذا البحث، فإنّها تتمثّل في الآتي:

١/تَبيُّن بنية المقاطِع الابتدائية والخِتامية للسياقات التي قصدت المرأة تخليقَها؛ للدّفع بأفعالها الكلامية الـمُنجِزة لمقاصدها الرئيسة.

---

[1] ينظر: المنتَقى من أخبار الأصمعي، الإمام/ضِياء الدِّين المقدسيّ (انتقاهُ من كتاب أخبار الأصمعي للإمام/الرّبعيّ)، نشر وتحقيق وتقديم: عِزّ الدّين التّنوخيّ، ٣٦ (مقدمة التحقيق).

٢/مراقبة توليد الأفعال الكلامية التخييلية بما فيها من أفعال القول، والأفعال الـمُتضمَّنة في القول، والأفعال الناتجة عن القول على مستوى التلفُّظ والسُّلوك، وتحديدها ومعانيها.

٣/التعرُّف على توجيهات الاستِلزامات الـمُحادَثيّة في الموقف التلفُّظي.

٤/استنباط اتجاه الابتكار في تحويل الموقف من موقف اجتماعي صِرْف إلى موقف تَنافسي في بلاغة التلفُّظ.

وعلى هذا، فإنّ البحث قد بُنِي على تمهيدٍ يُؤسس المفاهيم النقدية للنظريات المُشتَغل بها وأدواتها التحليلية، يلي ذلك مفهوم الخبر، ومصدره، ونصّه الـمُعتَمد. وأمّا المتن، فيتكوّن من ثلاثة مباحث على النحو الآتي: الأوّل بعنوان: بِنية مقاطع السياق المقامية للخِطاب، والثاني بعنوان: توليد الأفعال الكلامية ودلالاتها، والثالث بعنوان: توجيه الاستلزامات الـمُحادَثية وحمولاتها.

ولقد حاول هذا البحث أن يكون أسلوب التحليل ومصطلحاته التداولية مُنسابةً مع نصِّ الخبر الـمَدروس بما يُزيل الثغرات الـمَظنُونة بين النص العربي التراثي بمحتواه الاجتماعي البلاغي، والتنظيرات التداولية الغربية الحديثة؛ لأنّ طبيعة النصوص هي التي تفرض على الـمُحلِّل نوع المنهج التحليلي وأدواته.

التمهيد

بما أن البحث في سياق التداولية (Pragmatics)؛ فيحسن البدء بتحديد مفهومها؛ فهي "التي تهتم بالعلاقات القائمة بين الأدلة ومُستعمِليها، واستِعمالها، وآثارها، من حيث معناها الضيّق، وتُطلَق التداولية على التخصص أو التخصصات التي تُعنى بالمكوِّن التداولي، وعندما نتحدث عن المكوِّن التداولي أو عندما نقول: إن ظاهرة ما خاضِعة لـ(عوامل تداولية) فإننا نَقصد بذلك المكوِّن الذي يُعالج وصف معنى الملفوظات في سِياقها"[(١)]. ومن أهمِّ ما يتّصل بذلك من مفاهيم هذا البحث؛ ما يأتي:

١-السياق (Context) :

يُقصَد به -معًا- السياق الـمَقالِي (أي: "محيط الوحدة القولية"[(٢)] الـمَقامِي (أي: "المحيط المادّي الاجتماعي الذي يتمّ فيه التلفّظ، وفيه يتعرّف الـمُتخاطِبان أحدهما

---

(١) المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، دومينيك مانغونو، ترجمة: محمد يحياتن، ١٠٠-١٠١.

(٢) معجم السرديات، محمد القاضي وآخرون، إشراف: محمد القاضي، ٢٥٦. والسياق الداخلي اللغوي قد يبدو متضادًّا مع السياق الخارجي المقصود، ولكنه -مع ذلك- يبقى مفهومه محصورًا بالمحيط اللغوي الصّرف لنَصّ الخطاب، وإن رأى بعضهم أنّ الأفعال التي يقوم بها المتخاطبون في أثناء عملية التلفُّظ تدخل من ضمنه. ينظر: المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، دومينيك مانغونو، ٣٥.

على الآخر، وتتبلور الصورة التي يحملها الطرفان؛ أحدهما عن الآخر"[١]، وهو يُحقق ربط الـمَلفوظات المـُحلَّلة بسياقات إنشائها[٢]. ومع تعدّد مكوّنات السياق، إلاّ أنّ العناصر الـمـُتَّفق عليها تتمحور في: الأطراف المشاركة في حَدَث الخِطاب، والإطار الزماني، والإطار المكاني، والمقصِد منه[٣]. والسياق ليس تكوينةً جاهزة لمـُحلّل الخطاب ولا ثابتة يمكنه أن يُحيط بها تلقائيًّا، وإنما عليه بذل الجهد للوصول إليها من خلال تصورات المشاركين في الخطاب، وهي تصورات متباينة مُتغيِّرة في أغلب الأحيان؛ لأن المشارِكين في الخطاب يبقون في حالة استكشاف لنوع الخطاب الذي يشاركون فيه، ويحرصون على انتقاء المؤشرات المتنوعة المناسِبة؛ لتكون سلوكياتهم القولية محقِّقةً لمقاصدهم[٤].

٢-الأفعال الكلامية (Speech Act) :

الفعل الكلامي/فعل الخِطاب: هو "الوِحدة الصغرى التي بفضلها تُحقق اللغةُ فعلاً بعَينه (أمر، طلب، تصريح، وعد...) غايتُه تغيير حال الـمُتخاطِبين"[٥]. وأيّ فعلٍ كلاميّ يتضمّن أداء "ثلاثة أفعال متزامنة: الفعل اللغوي/القولي (Speech Act)؛ (أي: نُنتِج مُتوالية من الأصوات لها تنظيم تركيبي، وتُحيل على شيءٍ بعَينِه)، والفِعل الإنشائي/الـمُضمَّن في القول (Illocutionary Act)؛ (أي: نُنجِز من خلال كلامنا نفسِه فعلاً يُغيّر العلاقات القائمة بين الـمُتفاعِلين... التصريح بشيءٍ، الوعد بشيءٍ...)، والفِعل التأثيري/فعل التأثير بالقول (Perlocutionary Act)؛ (أي: يمكننا إنجاز فعل إنشائي لتحقيق أفعالٍ مُتنوّعة: فالسؤال -مثلاً- قد تكون الغاية منه استِمالة الـمُتلفِّظ الـمُشارِك، أو الإبانة عن تواضعنا، أو إزعاج طرف ثالث...)"[٦].

٣-الاستِلزام الخِطابي المُحادَثيّ (Conversational Implicature) :

---

[١] معجم السرديات، محمد القاضي وآخرون، ٢٥٥-٢٥٦. يشمل المقام (Situation) النص والسياق؛ لذا فهو أوسع من مفهوم السياق. ينظر: المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، دومينيك مانغونو، ١١٨.

[٢] ينظر: المرجع السابق، ٢٧.

[٣] ينظر: المرجع السابق، ٢٧-٢٨.

[٤] ينظر: المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، دومينيك مانغونو، ٢٩-٣٠.

[٥] المرجع السابق، ٧.

[٦] المرجع السابق، ٨ (بتصرف). ويُنظر: معجم السرديات، محمد القاضي وآخرون، ٢٩٣-٢٩٧.

بما "أنّ بعض الأقوال تُبلّغ أكثر مما يدلّ عليه مجموع الكلمات التي تُكوّن الجملة"[١]؛ فهذا هو الاستِلزام الخِطابي الوَضعيّ (Conventional Implicature) الذي تولّده الكلمة والعبارة اللغوية[٢]؛ في حين يَنتج الاستِلزام الخِطابي الـمُحادَثي عن تشغيل مبدأ التعاون (Cooperation) ومقولاته الأربع التي تُعرف بالحِكَم الـمُحادَثية (Conversational Maxims)[٣]، و"يَنصّ مبدأ التعاون على أنّه من المفروض أن يكون كلُّ مُشارِكٍ في المحادثة متعاوِنًا في عملية التبادل القولي... وفق ما يفرضه اتجاه المحادثة، وأهدافها المـَقبولة ضمنيًّا"[٤]. والتعاون هو الإسهام الذي يقدّمه المشارِك في التفاعل التلفّظي لإدارة التخاطب مع آخر، وهذا لا يعني خلوّ التخاطب من التوتر؛ لتحقُّق التناغم الكامل، وإنما لا بد من توفّر الحد الأدنى من القواعد المحترمة بين المتخاطِبين[٥]. وهذه القواعد أو الحِكَم الأربع تقوم على: الإيجاز/القَصْد في حجم الكلام الـمُتَلفَّظ به، والصدق بحيث يُطابق الـمُتلفَّظ به اعتقاد المتكلِّم، ومناسبة تلفُّظه للموضوع والسياق، والوُضوح[٦]. وللمتكلّم أن يُقدّم حِكمةً على أخرى بحسب ما يُحقّق مقاصده التلفُّظية[٧].

٤-الخبر: مفهومه، ومصدره، ونصّه:

يُعَدُّ "الخبر وحدةً سرديةً مستقلةً"[٨]. و"يقتضي ذلك أن يكون في كلّ خبرٍ ملفوظاتُ حالةٍ، وهي تصل بين الشخصيات والصفات، وملفوظاتُ فِعل، وقوامها الأحداث التي تغيّر من الحالات. وليس النص السردي إلا سلسلة من التحولات التي تطرأ على ملفوظات الحالة بواسطة ملفوظات الفعل"[٩].

وبما "أنّ خصوصية الخبر الأدبي تتمثّل في عبارته وصِياغته"[١٠]، وأنّ "غاية رواة الأخبار هي المتعة الفنية التي تحصّل القارئ أو السامع من خبر معين "[١١]؛ فقد اعتمدتُ الخبر بروايته في (المنتقى من أخبار الأصمعي) للمـَقدسيّ بتحقيق: عزّ الدين

---

[١] القاموس الموسوعي للتداولية، جاك موشلر وآن ريبول، ترجمة: مجموعة من الأساتذة والباحثين من الجامعات التونسية، إشراف: عز الدين المجدوب، مراجعة: خالد ميلاد، ٢١٢.

[٢] ينظر: المرجع السابق، ٢١٣.

[٣] ينظر: المرجع السابق، ٢١٣، ٢٦٦.

[٤] القاموس الموسوعي للتداولية، جاك موشلر وآن ريبول، ٢٦٦.

[٥] ينظر: المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، دومينيك مانغونو، ٣٣-٣٤.

[٦] ينظر: القاموس الموسوعي للتداولية، جاك موشلر وآن ريبول، ٢٠٤، ٢١٤-٢١٧، ٢٦٦؛ والمصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، دومينيك مانغونو، ٨٢-٨٣.

[٧] ينظر: القاموس الموسوعي للتداولية، جاك موشلر وآن ريبول، ٢١٧-٢٢٠، ٢٦٦-٢٦٧.

[٨] الخبر في الأدب العربي، د.محمد القاضي، ١١٧-١١٨، ٣٥٣.

[٩] المرجع السابق، ٣٥٣.

[١٠] المرجع السابق، ٣١٧-٣١٨.

[١١] المرجع السابق، ٣٠٩-٣١٠.

التنوخيّ -رحمه الله- عام ١٣٥٤هـ، وطابقتهُ مع تحقيق: محمد مطيع الحافظ الصادر عام ١٩٨٧م[١]، وطابقتُ الخبر مع روايته في (تاريخ مدينة دمشق) لابن عساكر (٤٩٩-٥٧١هـ)[٢]؛ وفي (المُنتَظِم في تاريخ المُلوك والأُمم) لابن الجَوزي (ت٥٩٧هـ)[٣]؛ وفي (مِرآة الزمان في تواريخ الأعيان) لسبط ابن الجَوزي (٥٨١-٦٥٤هـ)[٤]؛ وسأُثبتُ التنبيه إلى التصويب المُستَفاد من تلك الروايات في حاشية الرّواية المُعتَمدة للخبر من (المنتقى من أخبار الأصمعي) بتحقيق: التنوخي.

نص الخبر:

"أخبرنا الشّيخُ الإمامُ الخطِيبُ أبو الفضل؛ عبدُ الله بن أحمد بن محمّدٍ بن عبد القاهر الطُّوسِيّ كتابةً أنّ أبا الحسن؛ أحمد بن عبد القادر بن محمّدٍ بن يوسف أخبرهم سنةَ إحدى وتسعين وأربعمائةٍ: أنبأ أبو القاسم؛ عبد الملك بن محمّدٍ بن عبد الله بن بشران بن محمّدٍ قراءةً عليهِ قال: قُرِئَ على أبي سهلٍ؛ أحمد بن محمّدٍ بن عبد الله بن زيادٍ القطّان -وأنا أسمعُ منه- قال: ثنا إسحق بن محمّدٍ بن أحمد النّخْعِيّ؛ ثنا داود بن الهيثم عن أبيه عن إسحق بن عبد الله بن جعفر قال:

جاءتِ امرأةٌ إلى عبدِ اللهِ بن جعفر، فقالتْ لهُ: يا سيّدي! وَهَبَ لي بعضُ جاراتِي بَيضةً، فحَضَنْتُها تحتَ يَدَيّ؛ حتّى خرجتْ فَرُّوْجَةً؛ فغَذوتُها بأَطيَبِ الطّعامِ؛ حتّى بلَغَتْ؛ وقد ذَبحْتُها، وشَويتُها، وكَفَّنْتُها برُقاقتَين؛ وجعلْتُ للهِ عَلَيَّ نَذْرًا أَنْ أَدْفِنَها في أَكْرَمِ بُقْعةٍ في الأرض، ولا -واللهِ- ما أَعلَمُ بُقْعَةً أَكرَمَ مِن بَطْنِكَ؛ فَكُلْهَا! قال: يا بُدَيْح[٥]! خُذْهَا مِنْهَا، ولمْض؛ فانْظُرِ الدَّارَ التي فيها؛ أَلَهَا هِيَ؟ فَإِنْ كانَتْ لَها؛ فاشْتَرِ لَهَا مَا حَوَلَها مِنَ الدُّوْرِ! وإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهَا؛ فَاشْتَرِهَا لَهَا ومَا حَوَالَيْهَا! فَذَهَبَ، ثمّ رَجَعَ؛ فقَالَ: قد اشْتَرَيْتُ الدَّارَ لَهَا ومَا حَوَالَيْهَا؛ فقالَ: احْمِلْ لَها علَى ثَلاثِيْنَ بَعِيْرًا حِنْطَةً، وَشَعِيْرًا، وأَرْزًا، وزَبِيْبًا، وَتَمْرًا، وَدَرَاهِمَ، ودَنَانِيْرَ، وبَزًّا! قالت العَجُوزُ: يا سيِّدي! لا تُسْرِفْ! إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ المُسْرِفِيْنَ"[٦]!

---

[١] ينظر: المنتقى من أخبار الأصمعي، القاضي أبو محمد؛ عبد الله بن أحمد الربعي، انتقاء: الحافظ ضياء الدين؛ محمد بن عبد الواحد المَقدسي، تحقيق: محمد مطيع الحافظ، ١٦٤-١٦٥.

[٢] ينظر: تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر، دراسة وتحقيق: محب الدين؛ أبي سعيد؛ عمر بن غرامة العَمروي، ٢٧/ ٢٨٢-٢٨٣.

[٣] ينظر: المنتظم في تاريخ الملوك والأُمم، ابن الجوزي، دراسة وتحقيق: محمد عبد القادر عطا، ومصطفى عبد القادر عطا، ٦/ ٢١٤-٢١٥.

[٤] ينظر: مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، سبط ابن الجوزي، تحقيق وتعليق: محمد رضوان عرقسوسي، وعمّار ريحاوي، ٩/ ٢٥٧.

[٥] في (المنتقى من أخبار الأصمعي) بتحقيق التنوخي: "بدبح". ٤٤. وهي خاطئة؛ لذا أُثبت الصواب من (المنتقى من أخبار الأصمعي) بتحقيق: الحافظ. "بُدَيح". ١٦٤-١٦٥. ومثله في (مرآة الزمان في تواريخ الأعيان). ٢٥٧.

[٦] المنتقَى من أخبار الأصمعي، ضياء الدِّين المقدسي، تحقيق: التنوخي، ٤٤، النص بالرقم (٨٦).

المبحث الأوّل: بِنية مقاطع السياق المقامية للخِطاب

قبل تحليل مقاطع السياق المـَقامية التي أنشأتْها المتكلِّمة؛ لإنجاح مَلفوظاتها الخِطابية؛ من الـمُفيد الوقوف على مظاهر واقعية الخبر وصدق مرجعياته التاريخية والعناية به؛ لأنّ "مُحلِّل الخِطاب ينظر في الشروط التي تجعل الخِطاب ذا حُجّة؛ أي: يُعنَى بالإبانة عن السياق الذي يجعل الخِطاب مشروعًا وفعّالاً"[١]؛ وعليه فإنّ من علامات الثقة والصدق في واقعية هذا الخبر ما يحمله إسناده من مصطلحات أداء الرواية في السند كما لدى رواة الحديث، وكذلك ذِكر مسارات الوقوف على الخبر من خلال سلسلة الرواة[٢]، وانتهاء أسانيد الخبر إلى الشخص نفسه[٣]، والنص على الرواة المباشرين مع اتفاقهم في الرواة الآخرين في السند[٤]، وظهور التثبُّت والتحري[٥].

إنّ "الإسناد عملية يقوم بها الراوي، تتمثّل في إنشاء خيطٍ واصلٍ بينه وبين مصدر الخبر، وهذا الخيط هو السَّند"[٦] الذي يُمثّل الشاهد على الخبر[٧]؛ ومع أنّ المتعة الفنية الناتجة من الخبر هي غاية رُواة الأخبار الأدبية[٨]؛ إلاّ أنّ العناية تتجه إلى الحدَث الكائن[٩] مع تَغييب واقعيّته لوُجود سارِدٍ تَخييليّ[١٠]. وعلى الرغم من هذا، فإن الإشارة إلى عبد الله بن جعفر -رضي الله عنه- ومولاه (بُدَيح) (ت٨٤هـ) يجعل "هذه الشخصيات تُحيل على ما هو واحدٌ ومُتفرِّدٌ في الواقع وفي التاريخ، ومن ثمّ نؤشّر عليها بأنها ذات مرجعية واقعية تاريخية"[١١] صنعتْ مع ما يُحيط بها من ظروفٍ، وموضوعٍ للخِطاب، ومهاراتٍ للمتكلِّمة، ومقصدٍ من الخبر- صنعت دقّةَ إسنادٍ عاليةً[١٢]، تُؤثّث السياق الواقعي الـمُميِّز له. وعليه؛ فإن هناك ما يُبرِّر للمتكلِّمة أنّها أنشأتْ سياقًا داخليًّا خاصًّا بتحقيق مَقاصدها من وراء مشروع التلفُّظ الـمُحادَثيّ الذي جاءتْ لإنجازه.

تتمحور بنية المـَقاطع الابتدائية والختامية للسياق الذي تعمّدت المرأة المتحكِّمة في موقف التلفُّظ إنشاءَه في الآتي:

---

[١] المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، دومينيك مانغونو، ١٠٤ (بتصرف).

[٢] ينظر: الخبر في الأدب العربي، د.محمد القاضي، ٣١١.

[٣] ينظر: المرجع السابق، ٣١١-٣١٢.

[٤] ينظر: المرجع السابق، ٣١٢.

[٥] ينظر: المرجع السابق، ٣١٢-٣١٣.

[٦] المرجع السابق، ٢٢٧.

[٧] ينظر: المرجع السابق، ٣٢٦.

[٨] ينظر: المرجع السابق، ٣٠٩-٣١٠.

[٩] ينظر: الخبر في السرد العربي، سعيد جبّار، ١٩٧.

[١٠] ينظر: المرجع السابق، ١٩٣.

[١١] المرجع السابق، ١٩٩.

[١٢] ينظر: الخبر في الأدب العربي، د.محمد القاضي، ٣٠٩-٣١٠.

١/الهدوء والخصوصية:

ينفتح الحدَث بدُخولٍ هادئ: "**جاءتْ**"[١] للمرأة الـمُتكلِّمة على حضرة عبد الله بن جعفر بن أبي طالب -ﷺ- في مجلسه المعتاد، وزمنه المعتاد لاستقبال واردِيه؛ لعدم وُجود أيِّ إشاراتٍ من راوي الخبر إلى أيِّ اضطِرابٍ في تفاصيل الزمان، والمكان، والأحوال؛ بما يُخالِف التنظيم الـمُتواتِر. يُضاف إلى ذلك غياب أيِّ إشاراتٍ إلى وُجود مُشارِكين آخرين في الموقف التلفُّظيّ؛ حضورًا، واستِماعًا، وتفاعُلاً؛ غير المشارِكين الثلاثة؛ وهم: المرأة، والوالي، ومولاه (بُدَيْح)؛ لأنّ توجيهات النشاط التلفُّظي وإشاريّاته لم تخرج عن حُدودهم الحاضِرة.

كان هذا الهدوء مُمهِّدًا فاعِلاً في التحضير للتأثُّر بمَلفوظات المرأة الـمُفاجِئة في طريقة تَشكيلها، والدُّخول معها -دون تَحوُّطٍ- في المباراة التلفُّظية البلاغية التي تقصّدتِ ابتِكارَها وإدارتَها من خلال مهاراتها في استثمار الخصائص اللغوية المـُنتِجة في السياق الذي أنشأتْه؛ لتَمتلك سُلطة التلفُّظ -وهي الأدنى منزلةً- دون الـمُخاطَب -وهو الأعلى منزلةً[٢]- مع أنها -بوصفِها المـُتكلِّمة- قد تواطأت على هذه المنزلة لها وللمُتلفِّظ الفِعلي المشترِك المـُتفاعِل معها في الخِطاب، وهي مُطابِقةٌ لواقع الحال والمرجعية التاريخية للخبر، وقد استثمرتها -كذلك- في توجيه الخطاب نحو إنجاز مَقاصدها[٣].

٢/السُّكون والاستقرار:

تتوالى وحدات نصّ الخبر والذّوات الـمُتلفِّظة الرئيسة في حالة سُكونٍ حركيٍّ؛ فالمرأة الـمُتكلِّمة لم تُبدِ أيّ سلوكٍ حركيٍّ استعطافِيٍّ أو تمثيليٍّ؛ حتى في تلفُّظها: "**فَكُلْها**"[٤]! لم ينقل الراوِي للخبر اندِفاع المرأة بأيِّ سلوكٍ حركيٍّ يؤكّد السلوك التّلفُّظي، وكذلك حين اندفع (بُدَيْح) لإنجاز الفعل الكلامي للمُخاطَب الـمُتّصِل بتفقُّد حال الدّار التي تُقيم فيها المرأة[٥]... لم تُضطرّ إلى المغادرة مع (بُدَيْح)، ولم تُضطرّ إلى إخباره بتفاصيل موقع تلك الدَّار؛ لأنه كان -في حقيقته- تفقّدًا لحال المرأة في عمومه؛ بهدف إصلاح أحوالها وفق المتوقَّع من المخاطَب المستَهدَف عبد الله بن جعفر، وهذا مبنيٌّ على نجاح عملية الافتراض المسبّق بين المرأة المتكلِّمة والمخاطَب المستهدَف؛ التي تحضر

---

(١) المنتقى من أخبار الأصمعي، تحقيق: التنوخي، ٤٤.

(٢) ينظر: استراتيجيات الخطاب، عبد الهادي الشهري، ٢٤٤.

(٣) كلّ خطاب يصدر عن منزلة يضع المتكلِّم نفسه فيها؛ فتصنع -تلقائيًّا- منزلة الآخر المشترِك في الخطاب. ينظر: المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، دومينيك مانغونو، ٩٧-٩٨.

(٤) المنتقى من أخبار الأصمعي، تحقيق: التنوخي، ٤٤.

(٥) ينظر: المصدر السابق، ٤٤.

بوصفها شكلاً من أشكال التضمينات الفاعِلة في الخِطاب[١].

يُضاف إلى ذلك أنَّ المخاطَب الـمُشترِك الـمُتفاعِل مع المتكلِّمة لم يَقُم بأيّ سلوكٍ حركيٍّ، مُستجِيبًا لإنجاز مقصِد المرأة المـُضمَر من خلال ما أمر به (بُدَيْح). هذا السكون الحركيّ لذوات التلفّظ الإنجازي الرئيسة يُغيّب الحضور الحركيّ، ويجعل العناية مُنصبَّةً على بؤرة التلفُّظ؛ لتأكيد أنّه موقفٌ تلفّظيٌّ من الطراز النادر والرفيع؛ مما يؤكّد أنّ الـمُتخاطِبَين مُتّفِقَين -تمامًا- على نوع الخطاب الذي يَنشأ بينهما، ويقود تأويلاتهما للمـَلفوظات بشكل أريحيٍّ دون إرباك[٢]؛ كما يُظهِر أنّ المتكلِّمة قد نجحت في استثمار الاستراتيجية التضامنية من خلال نجاحها في تقريب المخاطَب منها، والتقرُّب منه؛ حيث اكتسبتْ ثقتَه، ثم انتقلت إلى ممارسات الاستحواذِ عليه[٣]؛ لإنجاز مقاصدها الكامنة في أفعالها الكلامية.

٣/التخفّي والظُّهور:

تجلّت الذات الـمُتلفِّظة الرئيسة في بداية الموقف التلفّظي من خلال وصف "**امرأة**"[٤] بصيغة التنكير المطلقة؛ مما يَقتضي أنّها أنثى، شابّةٌ أو متوسِّطة العُمر؛ وغِياب صفاتٍ أخرى تُحدّد الهيئة أو الحال دليلٌ على أنّها ظهرتْ بمظهرٍ مألوفٍ غيرِ مُستَنكَرٍ أو لافِت، بل إنّه يستدرج استعطاف المخاطَب وتماهيه مع خطاب تلك الأنثى الـمُتكلِّمة؛ وهذا يُمعِن في التحريض على نسْجِ سلسلةٍ من المؤثِّرات النفسية الإدراكية القادمة كما رتّبتْها المرأة؛ لتأسيس سُلطتها في الخطاب، وكما تفاعَل معها المخاطَب وفق العَقْد المـُضمَر بينهما[٥].

أمّا في خِتام الموقف التلفُّظيّ حين أُنجِز للمُتكلِّمة مقصدها مع ما يزيد عليه، فقد كشفتْ ما جعل الراوي يتحوّل بوصفِها من (امرأة) إلى الوصف الـمُعيَّن "**العجوز**"[٦]، وهو وَصْفٌ يُحِيل إلى الخِبرة الحياتيّة للمرأة الـمُتكلِّمة، والمدة الزمنية التي تُفسِّر أبعاد هذه البلاغة التلفُّظية لديها، وتلك

---

(١) ينظر: المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، دومينيك مانغونو، ١٠٥.

(٢) ينظر: المرجع السابق، ٦٦-٦٧.

(٣) ينظر: استراتيجيات الخطاب، عبد الهادي الشهري، ٢٣٦-٢٣٧.

(٤) المنتقى من أخبار الأصمعي، تحقيق: التنوخي، ٤٤.

(٥) ينظر حول العقد في سياق الخطاب التداولي: المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، دومينيك مانغونو، ٣٠-٣١.

(٦) المنتقى من أخبار الأصمعي، تحقيق: التنوخي، ٤٤.

الاستراتيجيّات التأثيرية التوجيهية[1]، وهي بهذا الوصف تُؤكِّد تفوُّقَها على المخاطَب – كذلك– من خلال هذا التقدُّم العُمْرِيّ بما يقتضيه من خبراتٍ عُليًا في أساليب الخِطاب والدّفع بالـمَقاصد؛ ولعلّ أوّل ما يبرز لدى المرأة هو المعرفة العميقة بشخصية الـمُخاطَب؛ لأنّه يَمتلِك القدرات العالية على استقبال الخطابات التلفُّظيّة، وتحليلها، وفهمها، والتأثُّر بها؛ لأنّه يُقدِّر المهارات اللّغوية العالية؛ فالمرأة تعرف بلاغةَ المخاطَب وعِفَّتَه، وتعرف سخاءَه الذي لا يُدانَى في عصره؛ إذ سُمِّيَ "بَحْرَ الجُوْد"، وتعرف حُبَّه للطرافة، والظُّرْف، مع حِلْمِه[2].

.....

بتأمُّل السّمات الثلاث التي أُقيم عليها السّياق الـمَقامي؛ يتّضح الآتي:

١/الهدوء والخصوصية = عدم الاستعجال والأريحية = الـمُصارَحة [الصِّدق].

٢/السكون والاستقرار = عدم الاستعجال والرّزانة = طُول الخبرة في المعاناة [الصّبر].

٣/التخفّي والظّهور = العِفّة = طُول الخبرة في المعاناة والتقويم [القوّة].

لقد أسّست المرأة الـمُتكلِّمة مقاطع السياق التي تؤكِّد قِيمًا مهمّةً في التأثير في طبيعة استقبال الأفعال الكلامية الصادِرة عنها، وهي تقود إلى: الصدق، والرزانة، والعِفّة، والخبرة من خلال طُول المعاناة والـمُكابَدة؛ أي: الصبر، والقوّة، والتمكّن من خلال السلوك التقويمي الـمُضمَر في خاتمة الموقف التلفّظي؛ فهي –من خلال السياق السردي– لم تَنْحَنِ، أو تَهرم، أو يَظهر عليها شيءٌ حِسِّيٌّ من علامات التقدُّم في العُمْر والهَرم أو الـمَرض، وهي بهذا –فيما يبدو– تقوم بعمليّة تقويمٍ للموقف التلفُّظيّ كاملاً بأنّه ناجحٌ من طرفِها ومن طرف مخاطَبِها المشترك المتفاعِل معها، ولغة التّوجيه في قولها: "**يا سيِّدي! لا تُسرِف! إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ المُسرِفين**"[3]! تلك اللغة التي استعارتِ النصّ القرآني في قوله تعالى: {كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ} (الأنعام:١٤١) وقوله تعالى: {يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ} (الأعراف:٣١)؛ تتضمّن في الظاهر اللَّوْمَ على تَماهِيهِ معها في مستوى التّخييل في التلفُّظ وإنجاز التلفُّظ؛ فهي كانت مُسرِفةً في تَخييل طلبِها وتَقديمه؛ والتّخييل نشاطٌ لغويٌّ تلفُّظيٌّ،

---

(١) ينظر: استراتيجيات الخطاب، عبد الهادي الشهري، ٣٣٦.

(٢) ينظر: مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، سبط ابن الجوزي، ٢٥٥/٩، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، المزّي، ٣٦٧/١٤.

(٣) المنتقى من أخبار الأصمعي، تحقيق: التنوخي، ٤٤.

يتّخذ شكل الإخبار والإثبات[١]، وهو من استراتيجيات السلطة الإنجازية لدى المتكلِّمة. يُضاف إلى ذلك أنّ المــُخاطَب المشترِك المتفاعِل معها كان –بنفسه– مُسرِفًا في تحقيق مَقصُودِها الاجتماعي مثل إسرافِها في مستوى تخييلات تلفُّظها؛ مما يعني أنهما مُتعادِلان في الطلب والإنجاز؛ فلا إسراف بينهما؛ ولكنها – ضمنيًّا– تقصدُ الشّكرَ، والتأكِيدَ، والاستحسانَ، والتأييدَ؛ لأن المحذوف من استشهادِها بالنص القرآني ما قبل النهي عن الإسراف في الآيتين الكريمتين هو أمرٌ بالعَطاء والاستِمتاع بالخيرات؛ ولأنّ الخلفية الثقافية مُشتَركة بينهما بما فيها من أحكامٍ مسبّقة، وأفكارٍ عُرفيةٍ نمطية[٢]؛ ولأنّ المخاطَب المشترِك المتفاعِل معها يَعلم نصّ الأمر المــُتقدِّم على النهي في الآيتين الكريمتين اللتين استعارت محتواهما تلك المتكلِّمة، فإنّه سيشعر بالرّضا والسرور مثلها؛ لأنّها كأنّما قالت له: أدّيتَ المــَطلوبَ وما فوقَه، وصُنتَ عطاءكَ عن الإسراف، وبما أنّ الله لا يحبّ المسرفين؛ وأنتَ محبوبٌ مقصودٌ لقضاء الحوائج، ورفع النوائب؛ فأنت محبوبٌ من الله؛ إذن: من حقِّكَ عليَّ أنْ أحميكَ من الوُقوعِ في خَطَرِ السرَف وأنتَ تجاريني في سرفِ أُمنياتي!

المبحث الثاني: توليد الأفعال الكلامية ودلالاتها

تظهر الأفعال الكلامية في هذا الخبر السردي في هيئة شبكةٍ يَحكمها الفعل الكلامي الأوّل من المرأة المــُتكلِّمة؛ حيث إنّ ما ترتّب عليه وتلاه يقع في دائرة إنجازه وتقويمه بالكفاءة على مستوى إنشاء التلفُّظ، وعلى مستوى إنجاز المــُتلفَّظ به ومَقاصده.

ينبثق الفعل الكلامي الأوّل من المرأة المــُتكلِّمة حين قالت للمُخاطَب: "**يا سيّدي! وَهَبَ لي بعضُ جاراتِي بَيضةً، فحَضنْتُها تحتَ يَدَيّ؛ حتّى خرجتْ فَرُّوْجَةً؛ فغَذوتُها بأَطيَبِ الطّعامِ؛ حتّى بلَغَتْ؛ وقد ذَبحْتُها، وشَويتُها، وكَفَّنْتُها برُقاقتَين؛ وجعلْتُ للهِ عَلَيَّ نَذْرًا أَنْ أَدْفِنَها في أَكْرَمِ بُقْعةٍ في الأرض، ولا –واللهِ– ما أَعلَمُ بُقْعَةً أَكرَمَ مِن بَطْنِكَ؛ فَكُلْهَا**"[٣]!

يظهر فعل القول فيما سردتْه المرأة المــُتكلِّمة من بعد نِدائها المحتَرم لشخص المخاطَب نداءَ تبجيلٍ وطاعة، ويُعَدّ النداء توجيهًا؛ لأنه يحفّز المــُخاطَب لرَدّة فعلٍ تجاه المــُتكلِّمة[٤]، وهو يَندرج من ضمن وسائل تأسيس السلطة في الخطاب من خلال التأثير الإدراكي والعاطفي ودَيمومته؛ أي: إنّ

---

[١] ينظر: التداولية اليوم، آن روبول وجاك موشلار، ترجمة: د.سيف الدين دغفوس، و د.محمد الشيباني، مراجعة: د.لطيف زيتوني، ٣٧.

[٢] ينظر: المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، دومينيك مانغونو، ١٠٤.

[٣] المنتقى من أخبار الأصمعي، تحقيق: التنوخي، ٤٤.

[٤] ينظر: استراتيجيات الخطاب، عبد الهادي الشهري، ٣٦٠.

الـمُخاطَب رفيع المنزلة سيّدها الآن، وقبل الآن، وبعد الآن؛ أي: في كلّ آن؛ لأنّ النداء يتضمّن أمرًا ضمنيًّا بطلب مَنْح الانتباه والعناية نحو المتكلِّمة[1].

إنّ هذا القول السردي الطويل يقع في دائرة التخييل والمبالَغة؛ وذلك حين وُهِبَت المـُتكلِّمةُ بيضةً واحدةً من إحدى جاراتها، وبقيتْ تحضُنها تحتَ يَديها بمثابة الأُمّ لها؛ لتَهبَها الحياة، وينمو في داخلها جنين الدّجاجة... وأقامتْ عليها مُنقطِعةً إلى احتوائها؛ حتّى فقستْ وشَبَّتْ دجاجةً يافِعةً، واستعمال وصف "**فرُّوجة**"[2] يُشير للجِنس المتضمِّن معنى الخِصب، والتكاثر، والاستمرار، وجذوة الحياة، والانقسام؛ كما يُشير إلى الزمن الطويل الذي بلغ فيه فَرْخ الدجاجة مرحلة الفرُّوجة؛ أي: مرحلة الفُتوّة[3] التي أكّدتْها المـُتكلِّمة باشتغالها على إحسان إطعامها من الأطايب؛ حتّى وصلت مرحلة عنفوان البلوغ الـمُحقَّق؛ أي: الوصول إلى مرحلة القدرة على التكاثر والإنجاز للخِصب؛ فحدثت المفاجأة الصَّادِمة حين حرمتْها من إنجاز ذلك بذبحها الشرعي، وإنضاجها بالشّيّ، وتغليفها برغيفين مَرقُوقَين أحسن رَقّ؛ وهي بهذه الحال من القدرة على التّخليق، والعناية، والكفاءة في التربية، والتغذية، وإنضاج الطبخ؛ استحقّت النّذرَ بأنْ يكون مكانها الأخير أكرم موضعٍ على الأرض، وهو "**بطن**"[4] الـمُخاطَب؛ حيث المـُستَقَرّ والـمَقصِد، وهو الاتصال بدلالة معرفة بواطن الأمور؛ أي: خفاياها[5]؛ فألحّتْ عليه بطلب أَكْلِها دون التدرُّج في طلبِ قبولها، وتناولها من يَديها، ثم أكلها؛ ليختبر طِيب طعمها!

إنّ التخييل يُمكّننا "من استخلاص نتائج صادقة؛ انطلاقًا من أقوال الخطاب ومن قضايا السياقات الـمُتتابعة التي يقوم عليها تأويل هذه الأقوال"[6]؛ لذا يأتي الفعل الـمُضمَّن بالقول ماثِلاً في الظاهر في أنّ المرأة الـمُتكلِّمة تُهدِي الـمُخاطَب أطيبَ ما لديها من ممتلكاتها، وأثمنَه، وألذَّه، في حين يظهر أنّ الفِعل الـمُضمَّن بالقول في الباطن يعني أنّها تَفتقد السّكن (يداها كانتا وعاءَ احتِضان البيضة حتّى فَقَسَتْ، وشَبَّتْ)، وتفتقد حدودَ الكِفاية؛ أي: هي فقيرةٌ (أُهدِيتْ بيضةً واحدةً وَقفتْ حياتَها كلَّها لرعايتها)، وتفتقد

---

(1) ينظر: المرجع السابق، ٣٤٣.

(2) المنتقى من أخبار الأصمعي، تحقيق: التنوخي، ٤٤.

(3) ينظر: لسان العرب، ابن منظور، تحقيق: عبد الله علي الكبير، ومحمد أحمد حسب الله، وهاشم محمد الشاذلي، مادة (ف ر ج).

(4) المنتقى من أخبار الأصمعي، تحقيق: التنوخي، ٤٤.

(5) ينظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، تحقيق وضبط: عبد السلام محمد هارون، مادة (بَ طَ نَ).

(6) التداولية اليوم، آن روبول وجاك موشلار، ١٩٧.

الــمُعِين؛ أي: هي وحِيدةٌ، لا مُؤانِس لها، ولا خادِم؛ بدليل توالي الأفعال السردية مُنتَظِمةً بإنجاز تاءِ الفاعِلة وحدَها؛ وهذه شكوى ضمنية من سوء الحال، وهي تشحن الخطاب بالذاتية التأثيرية العالية[١].

إنّ المقصد هو الطلب؛ أي: طلب المرأة إمدادَها بالــمَسكن الآمِن الدائم، وبالقُوت الدّاعِم لبَدنِها وستْر حالِها!

يظهر التأثير بالقول في تأثُّر الــمُخاطَب الــمُشترَك المــُتفاعِل مع المــُتكلِّمة، وفهمه لمقصودها المــُضمَر؛ لذا أنجز فعلاً قوليًّا آخر على غِرار قولها يُحقِّق به مَقصُودَها على مرحلتَين كما كان في فعلها القولي؛ فالقول الإنجازي الأوّل للمُخاطَب يُوازي قولَها: "**فحضنتُها تحتَ يَدَيّ؛ حتّى خرجتْ فَرُّوْجَةً؛ فغَذوتُها بأَطيَبِ الطّعامِ؛ حتّى بلَغَتْ؛ وقد ذَبحْتُها، وشَويتُها، وكَفَّتُها بِرُقاقتَين**"[٢]؛ وذلك حين أمرَ مولاه (بُدَيْح) بقبُول هديّتها، وأخذها، والانطلاق من فَوره لتفقُّد دارِها التي تسكُنها من جهةِ مِلكيّتها لها؛ وذلك في قوله: "**يا بُدَيْح! خُذْهَا مِنْهَا، وامْضِ؛ فانْظُرِ الدَّارَ التي فِيها؛ أَلَهَا هِيَ؟ فَإِنْ كانَتْ لَها؛ فاشْتَرِ لَهَا مَا حَولَها مِنَ الدُّوْرِ! وإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهَا؛ فَاشْتَرِهَا لَهَا ومَا حَوَالَيْهَا**"[٣]!

وهذا الفعل القوليّ يتضمّن فعلاً مضمَّنًا فيه، هو أنّ الــمُخاطَب المشترِك المتفاعِل معها يُخبرها بأنّه: قَبِل هديّتَها، وسيُنجِز أكلها المادي والمعنوي، وضَمِنَ لها المأوى الحامِي؛ أي: إفادة القبول، وتأكيد إجابة الطلب؛ مما يعني أنه رفع عنها عوارِض الحاجة. وأمّا التأثير بالقول، فيتمثّل في استجابة (بُدَيْح) السلوكية النابعة من علاقة الطاعة الــمُضمَرة التي تربط منزلتَه بمنزلة سيّده[٤] من خلال:

أ/أخذ الفرّوجة المشويّة من المرأة الــمُتكلِّمة، والذهاب لتفقُّد ملكيّة دارِها بسُؤال مَن يعلم أمرَها.

ب/العَودة إلى مجلس الــمُخاطَب بعد تفقُّد مِلكيّة دارِها، وإنجازه أمْرَه؛ فأنشأ فِعلاً قوليًّا مُترتِّبًا على الفعل القولي الــمُنجَز للمُخاطَب؛ إذ قال (بُدَيْح): "**قد اشْتَرَيْتُ الدَّارَ لَهَا ومَا حَوَالَيْهَا**"[٥]؛ أي: إنّ الدار التي تسكنها ليستْ مِلكًا لها؛ فهي تَستكريها من صاحبها، وهذا الفعل المــُضمَّن في القول يعني: قد ملّكناها الدار التي تسكنها وكلَّ ما حولها؛ فهي الآن تملِكُ دُورَ جاراتِها اللاتي أهدتها إحداهنّ بيضةً وحيدةً! أي: صارتْ مالِكةً عزيزةً! وتحوّلتْ من الذُّلّ والفَاقة إلى حالِ العِزّ

---

[١] ينظر: المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، دومينيك مانغونو، ١٢٣-١٢٤.

[٢] المنتقى من أخبار الأصمعي، تحقيق: التنوخي، ٤٤.

[٣] المصدر السابق، ٤٤.

[٤] ينظر: المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، دومينيك مانغونو، ٩٧-٩٨.

[٥] المنتقى من أخبار الأصمعي، تحقيق: التنوخي، ٤٤.

والغِنى. إنّ (بُدَيْح) يُثبتُ أنّه حقّق أمر المــُخاطَب المشترِك المتفاعِل مع المرأة المتكلِّمة، وحقّق طلبَها.

بهذا تتسع دائرة التأثير بالقول عَوْدًا على الــمُخاطَب الرئيس الذي أنجز فعلاً قوليًّا آخر حين قال: "**اِحْمِلْ لَها علَى ثَلاثِيْنَ بَعِيْرًا حِنْطَةً، وَشَعِيْرًا، وأَرْزًا، وزَبِيْبًا، وَتَمْرًا، وَدَرَاهِمَ، ودَنَانِيْرَ، وبَزًّا**"[1]!

خمسةُ مَأكولاتٍ هي صُلْبُ المعِيشة العربية آنذاك، ومَلبُوسٌ واحِدٌ هو الثّياب "**وبَزًّا**"[2]، ودراهم الفضة ودنانير الذهب؛ لتَتخيّر في تصريف هذه الأموال ما تُريد! لقد أُنشئ هذا الفعل القولي على غِرار قولها الثاني: "**فَغذوتُها بأطيبِ الطعام؛ حتّى بلَغتْ**"[3]؛ مما جعل الفعل المضمَّن في القول يعني: زوّدْها بأطيب الطّعام وقوتِ حياتها كلّها! ويُظهِر هذا ما حصل من طمأنينة نفس الــمُخاطَب المشترِك المتفاعِل مع المتكلِّمة وسكونِها إلى فهمه مقاصِدها وإنجازها، استجابةً لقوّة أفعالها الكلامية التي حملتْ سمات الإثبات والإلحاح[4].

وقد جاء التأثير بالقول ماثِلاً في تأثُّر المرأة الــمُتكلِّمة العاطفي التوجيهيّ، وإنجازها فعلاً قوليًّا آخر على غِرار قولِها الأوّل بإشاراته الدينية إلى النّذر والوفاء به، وعلى غِرار القول الثاني للمُخاطَب المشترِك المتفاعِل معها حين تتبّع مقاطع قولِها بتَحقِيق ما يُوازِي مقاصِدَها فيها؛ فخافتْ أو خجِلتْ من الزّيادة؛ فقالت: "**يا سيِّدي! لا تُسْرِفْ! إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الــمُسْرِفِيْنَ**"[5]!

ظاهِر هذا القول أنَّ الفِعل الــمُضمَّن فيه هو الاستنكار، والنّهْي، والنَّهْر؛ بسبب استياء المرأة الــمُتكلِّمة من تجاوز الــمُخاطَب المشترِك المتفاعِل معها حدودَ الاعتدال في إجابة الطلب، أو في منحها جائزة بلاغتها المــُنجَزة. وبما أنّ الخبر أُغلِق دون ذِكرٍ صريحٍ لتأثيرٍ بالقول؛ أي: بالسكوت/الإضمار، وهو قد حقّق وظيفة الإثارة بدرجاتها الوجدانية، والحسية، والعقلية[6]؛ فإنّه يَحتمل تَوافُق الــمُخاطَب المشترِك المتفاعِل مع المرأة الــمُتكلِّمة في ظاهر قولها، ويحتمِل توافقه معها في باطن قولها؛ لأنّها تُضمِر الرضا والشّكر؛ لأنّه جاراها في أبنِيتها التلفُّظية، وطبقاتها، ومقاصدها، ولأنّه -كذلك- لبّى طلبَها من مالِه الخاص، وهي تَعرف أنَّ العُرف العربيّ

---

(1) المصدر السابق، ٤٤.

(2) المصدر السابق، ٤٤.

(3) المصدر السابق، ٤٤.

(4) ينظر: نظرية أفعال الكلام العامة، جُون أوستين، ترجمة: عبد القادر قينيني، ١٦٠-١٦١.

(5) المنتقى من أخبار الأصمعي، تحقيق: التنوخي، ٤٤.

(6) ينظر: الخبر في السرد العربي، سعيد جبار، ١٥٧-١٦٠.

والشّيم العربية لنْ تجعلَه يتراجع في مقدار هِبَتِه لها؛ بسبب نهرها ونُصحِها إيّاه، وهي تعرف -كذلك- أنّ المقام يَفترِض الشّكر من قِبلها بدلاً من النَّهْرِ وإظهار التبرُّم من سخائه؛ فهي بهذه الاستعارة الظاهرة من الآيتين القرآنيتين السابق ذكرهما؛ تَستثِيرُ الــمُخاطَب؛ استِحسانًا لصَنِيعه، وامتِداحًا لكرمه وذكائه؛ فهو قد فطن إلى قدرتها الاستثمارية الإنتاجية على مستوى التلفُّظ اللّغوي، وعلى مستوى الإدارة المادية لمعطيات الحياة البسيطة؛ فاستثمر هذا فيها من خلال الهِبة السخيّة، وهي بذلك تَدفع عنه وَصْفَ السَّرَف[١] المقصود في ظاهر الآيتين الكريمتين، كما تتعهَّد بدَفْعِ السَّرَف -ضمنيًّا- عن سُلوكها في إدارة مكوِّنات هِبتِه التي تحمل معنى الاختبار الذي أوقعها فيه، وبقي النصّ مفتوحًا عليه!

هناك طبقةٌ ضمنيةٌ من فعل القول الذي يتوسّل النهي؛ فهي تعني: بما أنكَ لستَ مُسرِفًا؛ فلا تَلُمْ نفسَكَ بِظَنِّ الإسرافِ في فِعْلِك! وهذا يكشف الطبقة الثانية من النّهي[٢]، وهي تتضح من خلال تأمُّل منزلتَي المتخاطِبَين؛ فالمــُتكلِّمة ذات المنزلة الأدنى هي التي تَنهى، والنهي الظاهري عن الإسراف يتضمّن دلالة النهي عن الشعور بالإسراف؛ أي: النهي عن تأويل التأثير بالقول على أنّه إسراف! وهذا إشهارٌ للتوافُق في التأويل بين الــمُتَخاطِبَين؛ فالفعل اللغوي الإنشائي يَكون مُنجِزًا بمجرّد التلفُّظ به وهو يَقول شيئًا ما[٣].

هذا القول الإنجازيّ الــمُصدَّر من خلال صفتها عجوزًا في هذا التلفُّظ يُحيلُ إلى قوّةٍ إنجازيّةٍ في الخبرة، والتقدير، والالتزام بصيانة الهِبة مثلما صانت البيضة، ومنحتْها الحياة، وتقديم مَنتوجاتها الطيبة لمن يستحقّ؛ فما قامت به المتكلِّمة يُصنَّف من نوع المهارات التواصلية الإنجازية؛ لأنها استثمرت إمكانات التبديل الممكنة في التلفُّظ في المستوى الصوتي، والتركيبي، والتصويري، والمعجمي؛ وهي تثق أنّ المخاطَب المشترِك المتفاعِل معها يعرف هذه الإمكانات، ويفهمها، ويمكنه أن يستثمرها - هو أيضًا- في المقام التلفّظي معها[٤].

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، مادة (سَ رَ فَ).

(٢) ينظر: استراتيجيات الخطاب، عبد الهادي الشهري، ٣٥١.

(٣) ينظر: نظرية أفعال الكلام العامة، جون أوستن، ترجمة: عبد القادر قينيني، ١٦١-١٦٢.

(٤) ينظر: استراتيجيات الخطاب، عبد الهادي الشهري، ٢٢٦.

المبحث الثالث: توجيه الاستِلزامات المُحادَثيّة وحُمولاتها

لقد أسهم خَلْقُ المرأة المتكلِّمة سياقًا خاصًّا بمَلفُوظاتِها في توجيه مَساراتها التأثيرية التي قادتْ نحو إنجازها إنجازًا تعاقبيًّا مُوازيًا لمراحلها، وطبقاتها، وحُمولاتها الدلالية.

يبدو الفعل الكلامي الأوّل للمرأة الـمُتكلِّمة هو أطول الأفعال التلفُّظية في هذا النص السردي؛ لما فيه مِن قَصٍّ تفصيليٍّ يُدقِّق في حركة الشخصيات، وتحوُّلات الأشياء، والأزمنة، والأمكنة؛ وإنْ بدا أنّه طويلٌ مُستطرِدٌ إلاّ أنّه كان مَحكُومًا بإنتاج حُمولاتٍ مكثّفةٍ بأوجزِ تخييلٍ مُمكِن! وقد انعكس هذا التفصيل الموجَز في الأفعال القولية للمخاطَب المشترك المتفاعِل معها ومولاه (بُدَيْح)؛ ومع هذا لا يمكن وصف تلك الأفعال الكلامية المنجَزة بالإسهاب أو الإطناب؛ لأنها لم تتجاوز حُدود ما يَستلزِمه الموقف من كمّية إخبارٍ مُفِيدةٍ للمَطلُوب، مُحقِّقةٍ للمَقصود؛ فعلى سبيل المثال: المتكلِّمة لم تشرح علاقاتها بجاراتها، ولا بعائلتِها إنْ كان لها عائلة، ولا مكان سُكناها، ولا سبب هبةِ البيضة الواحدة، ولا سبب قَصْدِها لهذا المخاطَب بعَينه، ولا ما تُريد منه؛ وإنما اكتفتْ بالتلميح، وهوَ بادَلها بالتصريح. وهذا أوّل مستلزَمات مبدأ التعاون الظاهرة بين الـمُتَخاطِبين في نصِّ هذا الخبر؛ فالأدنى درجةً في الخطاب يستعمل التلميح مع مناوراتٍ لغويةٍ متعددةٍ؛ ليُوصل قصده ويُحقّقه؛ مما يضطره للإطناب، والأعلى منزلةً يستعمل التصريح والإيجاز[1].

يُضاف إلى ثنائيّة التلميح والتصريح الـمُتواطَأ عليها وضوح التقسيم، والترتيب، وبناء النتائج على مُقدِّماتٍ واضحة، واشتِراطاتٍ واضحة، كما في الفعل الكلامي الأوّل للمخاطَب المشترك المتفاعِل مع المتكلِّمة: "**يا بُدَيْح! خُذْهَا مِنْهَا، وامْضِ؛ فانْظُرِ الدَّارَ التي فِيها؛ أَلَهَا هِيَ؟ فَإِنْ كانَتْ لَها؛ فاشْتَرِ لَهَا مَا حَوْلَها مِنَ الدُّوْرِ! وإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهَا؛ فَاشْتَرِهَا لَهَا ومَا حَوَالَيْهَا**"[2]! ليَجيءَ فعل القول لـ(بُدَيْح) بعد إنجازه التأثير بالفعل: "**قد اشْتَرَيْتُ الدَّارَ لَهَا ومَا حَوَالَيْهَا**"[3]؛ فالقوة الإنجازية الحرفية تقصد التأكيد والإثبات؛ لأن القوة الإنجازية الحرفية للفعل القولي للمخاطَب المشترك المتفاعِل هي الأمر والإلزام. هي أمرٌ بفِعلٍ في المكان الحالي المـَعلوم (أخْذ الفَرُّوجة المشوية من المرأة)، وأمرٌ بفِعلٍ في المكان السابق الخفيّ/الـمُستَحضَر في أفعال المتكلِّمة القولية. وكذلك في الفعل الكلامي للمخاطَب المشترك المتفاعِل: "**اِحْمِلْ لَها عَلَى ثَلاثِيْنَ**

---

[1] ينظر: استراتيجيات الخطاب، عبد الهادي الشهري، ٢٣٩.

[2] المنتقى من أخبار الأصمعي، تحقيق: التنوخي، ٤٤.

[3] المصدر السابق، ٤٤.

بَعِيْرًا حِنْطَةً، وَشَعِيْرًا، وأَرْزًا، وزَبِيْبًا، وَتَمْرًا، وَدَرَاهِمَ، ودَنَانِيْرَ، وبَزًّا"[١]! حيث بدأ بغذاء الجسد (الحنطة، والشعير، والأرز، والزبيب، والتمر)، ثم جاء إلى ما يَستكمل الكماليّات (الدراهم، والدنانير، والبَزّ). من جانبٍ آخر، يَظهر أنّه رَتّب المأكولات ابتِداءً بما يحتاج إلى طبخٍ وإنضاجٍ (الحنطة، والشعير، والأرز)، ويَطول حِفظه، ثم ثنّى بما هو جاهِزٌ للأكل، ويُمثّل القوة الثانية في أصناف الـمَأكل (الزبيب، والتمر)؛ وهي تغذيةٌ لداخِل الجسد، ثم جاء بالدراهم الفضية، ثم الدنانير الذهبية الأعلى منها قيمةً؛ لتستوفي بها المرأة حاجاتها الأخرى ذات الخصوصية أو غير القابلة للتخزين أو الحمْل كالماء والحليب؛ تَلبيةً لحاجات النفْس؛ يلي ذلك (البَزّ) الذي يُراوح معناه بين أن يكون المقصود متاع البيت، والثياب بنوع الأردية الـمُتعارَف عليها بخاصة[٢]، ويُرشِّح المعنى الثاني ما في رواية (مرآة الزمان)[٣]؛ لأنه يتعلّق بِستْر خارج الجسد وأماكن استراحته واستعمالاته؛ مُذَكِّرًا بستر المرأة للدجاجة المشوية برُقاقتين كبيرتين. وهذا كلّه يسير في ملاءمة السياق الحقيقي الـمُضمَر والتخييلي الذي خلَقتْه المرأة؛ لإيصال سياقها الحقيقي بوضوحٍ عالٍ وهو مُكثَّفٌ ضاغِطٌ بالإلحاح عليه؛ وهذا مُستلزَمٌ آخر من مُستلزَمات مبدأ التعاون بين المـــتُخاطِبين.

بتأمُّل كيفيّات القَول التي سارتْ عليها أفعال الكلام؛ يتضح فيها آليّات تخليق الـمَسارات التصريحية التي تُكثّف الاغتِذاء بالحُمولات الدلالية المـــضمَرة، ويبرز في البِنية الظاهرية للأفعال الكلامية الآتي:

---

[١] المصدر السابق، ٤٤.

[٢] ينظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، مادة (بَ زَ زَ).

[٣] ينظر: (مرآة الزمان في تواريخ الأعيان)، سبط ابن الجوزي، ٢٥٧.

م	الفاعِل الكلامي/السلوكي	الفعل المُنجَز	المَفعُول المُنجَز	المفعُول لَه	التأثير بالفعل الكلامي/السلوكي
١	بعضُ جارات المرأة.	وهبتْ.	بيضةً (أقلّ من مقدار الحاجة، وهي مخفاة، جامدة دون حياة).	المرأة/المتكلِّمة.	المتكلِّمة قبِلتْها، ومنحتْها الحياة، فاستولدتْها، وغذّتها، وهيّأتها للأكل، وكستْها أو أخفتْها – كالعروس ليلة زفافها– بالرُّقاقتين. (فعل تقويمي للهِبة غير مباشر يعني أنها هِبة ناقِصة؛ أي: لم تتجاوز مرتبة البُخل والإقتار).
٢	المرأة/المتكلِّمة.	وهبتْ.	الفرُّوجة المشويّة المستورة في الرُّقاقتين (أقل من مقدار التقديم إلى المخاطَب ذي المقام العالي، سلبتْها الحياة، وهي مُشْهَرَة).	المخاطَب ذو المقام العالي.	المخاطَب قَبِلها منها، وتناولها من يدها. (فعل تقويمي للهِبة غير مباشر يعني أنها هِبة كاملة).
٣	المخاطَب ذو المقام العالي.	وهبَ.	مِلكيّة بيت المتكلِّمة وما جاوره من بيوت، مع قوت ومال وملبس (يفيض عن حاجة عجوز وحيدة، وهو مُشهَر، وجلمد يُحيي كلّ شيء).	المرأة/المتكلِّمة.	المتكلِّمة قوّمته مُعترضةً على إسرافه، وكأنها تطلب منه استرجاع أغلب ما وهبها! (فعل تقويمي للهِبة مقلوبٌ مباشر يعني أنها هِبة فوق الكاملة؛ أي: بلغت مرحلة الجُود والسخاء).

كانت المرأة محتاجةً، يترفّع جيرانها عن مساعدتها، ولكنّ بعض جاراتها تعطّفتْ عليها ببيضةٍ واحدة، وهي ليستْ مقدارًا للمساعدة، ولا للهِبة؛ ومع هذا استعارتْ لها وصف (هِبَة) من خلال فعلها القولي الــمُنجَز؛ فقُوّته الإنجازية الحرفية أنّه طلب مستور بهبة مُجزِية؛ لأن البيضة -بوصفها هبةً- تتضمن القوة الإنجازية للحرف من باب الامتعاض والسخرية؛ فلا تتوقف مكونات السخرية التأثيرية أو المقصدية على مجرد إثارة "الضحك أو الرغبة فيه"[١]، وإنما يندرج تحتها ما يتصل بـــ"الاستهجان أو مجرد الإحساس بالمفارقة"[٢]. ومع ما شعرت به المرأة من انتِقاص؛ إلاّ أنّها استثمرت البيضة، وزرعت الحياة فيها، وغذّتها، وهيّأتْها بكلّ ما لديها وما في مكنتِها، ثم ذبحتْها، وشوتْها، وكستْها بالرُّقاقتين، وقرّرتْ حرمان نفسها منها، وتحويلها -مرة ثانية وهي في حال الحياة والتمثُّل بعد حال الجمود والتخفّي داخل البيضة- إلى هبةٍ جديدةٍ مُكرَّمةٍ باتجاه المخاطَب الــمُستَهدَف على مستوى المحتوى القضوي؛ أي: المرأة تهَب الــمُخاطَب فرُّوجَتها الفَتِيّة! وهنا بروزٌ آخر لاستثمار المتكلِّمة شحن خطابها بالذاتية من خلال الأحكام الضمنية التقويمية غير المباشرة[٣].

الهِبة -هنا- ليستْ هبةً حقيقيةً؛ بدلالة النذر والقسم: "**وجعلْتُ للهِ عَلَيَّ نَذْرًا أَنْ أَدْفِنَها في أَكْرَمِ بُقْعةٍ في الأرض، ولا -واللهِ- ما أَعلَمُ بُقْعَةً أَكرَمَ مِن بَطْنِكَ؛ فَكُلْهَا**"[٤]! وإنما هي -بدلالة السياق- استِيهابٌ؛ أي: طَلَبٌ لمـــــــنحها الهِبةَ[٥]! أي: طلبٌ لإعادة إنتاج الحياة كما أنتجت المرأة حياةً من البيضة الجامدة الصمّاء! ويظهر أثر النّذر بالدفن في أكرم بقاع الأرض -مع القسَم الذي تتمثّل قوّته الإنجازية الحرفية في تأكيد صدْق معرفتها بأنّه لا مَدفَن لفرُّوجتها أكرم من بطن المخاطَب المشترِك المتفاعِل معها- يحمل قوةً إنجازيةً حرفيةً تُفيد عِظَم الشكر والامتِنان!

إنّ الدفن يَستلزم الموت، ولكنّه -في خطاب المرأة- بوصف مكان الدفن هو (بطن المخاطَب المشترِك المتفاعِل معها) فإنّ الدفن يَستلزم الحياة؛ أي: خِلافه! وهذه هي القوة الإنجازية الحرفية؛ فالهِبة الأولى لها من الجارات مجازية؛ لأنها -في أساسها- صدقةٌ؛ لسؤالها العون وضعف حالها؛ والهِبة

---

(١) البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، د.محمد العمري، ٨٧.

(٢) المرجع السابق، ٨٧.

(٣) ينظر: المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، دومينيك مانغونو، ١٢٣-١٢٤.

(٤) المنتقى من أخبار الأصمعي، تحقيق: التنوخي، ٤٤.

(٥) ينظر: لسان العرب، ابن منظور، مادة (وَ هَــ بَ).

الثانية منها للمخاطَب المشترِك المتفاعِل معها مجازيةٌ كذلك؛ لأنها طلبٌ للعِوض الكبير؛ أي: طلبٌ للهِبة الحقيقية! وقد فهِمها الـمُخاطَب؛ فالبيضة جامدة، ومع هذا، ومع ضعف المتكلِّمة؛ أنتجتِ الفرُّوجة؛ فصارت حيّةً تنمو، وكانت مَكمَن حياةَ الفَرُّوجة، وهي تساوي الدّار التي اشتراها المخاطَب للمتكلِّمة وما حولها؛ فهي جامدة، وأنتجت مِلكيّةَ ذاتها وما حولها من دخولٍ في مشروعٍ في تجارةٍ نامية، وأنتجتْ مالاً وقُوتًا يجعلها مُكتفيةً مُصانَة!

لقد أنفقت المتكلِّمة زمنًا طويلاً في تربية الفرُّوجة؛ أي: في مكابدة الفقر، والحاجة، والتعفّف، ومع هذا حرمتْ نفسَها منها، ووهبتهُ إيّاها، وهو صان هذا، وفهم المقاصد؛ فأوهَبها أعظمَ مما أوهبته!

إنّ كُسوة الفرُّوجة بالرُّقاقتين يُوازيها أنّه غذّى الدار بما يُقيمُها في الفصول كلّها، وفي حياة المتكلِّمة العجوز كلّها، وأضاف (البَزَّ) المعادِل الـمُستَحضِر للثياب؛ فهي كسوةُ العجوز عِوَضًا عن كسوة الفرُّوجة؛ وفي هذا تأكيدٌ لإنجاز التعاون بين المتخاطِبَين وفق عقدٍ مُحكمٍ وواضح.

يتضح في ملفوظ المتكلِّمة أنّها بذلتْ ثلاث مراحل مع الفرُّوجة:

١/تَخليق/تَوليد. ٢/تربية وتغذية.
٣/تهيئة للأكل.

(من عدَم إلى حياة) (قمّة الحياة)
(من حياة إلى موت)

وهذه المراحل وازنها المخاطَب المشترِك المتفاعِل بعشرةٍ من كُلِّ ما أمر به (ثلاثين بعيرًا)؛ فالحسنةُ بعشر أمثالها في الخلفية المشتركة بين المتخاطِبَين؛ لِذا ساق إليها ثلاثين بعيرًا تحمل من الأطايب كلّها.

من جانبٍ آخر، يظهر بين الفرُّوجة والمرأة الـمُتكلِّمة -مع اشتراكهما في الأنوثة والضعف- تضادّاتٌ صريحة:

-الفرُّوجة شابّةٌ مُقبلةٌ على الحياة، وستكون طويلة عهدٍ بها، وهي مَقضيّةُ الحاجات من خلال صيانة المرأة الـمُتكلِّمة.

-المرأة الـمُتكلِّمة عجوزٌ تبتعد عن الحياة، وستكون قصيرة عهدٍ بها؛ لأنها قريبة من الموت بحُكم تقدُّم عُمرها، وهي غير مَقضيّةِ الحاجات من خلال عدم صيانة جاراتها لها؛ ومع هذا فقد حدثت المفاجأة حين عزمتِ العجوز المتكلِّمة على الدخول في مكان المخاطَب وعقد محادثَةٍ معه؛ إذ أسرع الموتُ إلى الفرّوجة عن طريق فِعل العجوز السلوكي ونواياها الـمُضمَرة؛ فسلِمت العجوز التي أحيت الفرُّوجة لمقصد، وأماتتها للمقصِد نفسه الذي تحقّق من خلال الخطاب!

من الكلمات التي تُخفي حمولاتٍ قوية (بطنك) في الفعل القولي للمرأة: "**ولا -والله- ما أَعلَمُ بُقْعَةً أَكرَمَ مِن بَطْنِكَ؛ فَكُلْهَا**"!

فمحتواه القضوي يعني: تغذيتكَ فرّوجةً صحيحةً مُنَعَّمة، ولكن المعاني المضمرة تُحيل إلى الخفاء، وأنّها تُلمِّح ولا تُصرِّح؛ فالحمولة الدلالية لـــمَلفوظ (البطن) في سياق المتكلِّمة الخاص الـــمُتمازِج مع سياق المخاطَب المشترِك المتفاعِل معها؛ تتضح من خلال القوة الإنجازية الحرفية؛ فالبطن تعريضٌ بخواء بطنها هي؛ أي: حاجتها الملحّة، وفراغها، واستلزام إشباعها وسترها! ومع التعريض هناك مقابلة بين حالها ومكابدة الجوع والفاقة وحال المخاطَب المشترِك المتفاعِل معها من رغد العيش والكِفاية بعيدًا عن الجوع والفاقة! وهي تُكثّف الإيماء إلى أنّها حرمتْ نفسَها وأوهبَتْه! وهذا مِن أخفى أساليب الطلب والسؤال؛ فـــ"كلما كانت القوة المضمَّنة في القول لقولٍ ما غيرَ صريحة؛ أمكن التصريح بها"[(١)].

إنّ من الـــمَعلوم أنّ مَن يَأكل مِن يَد مُضيفِه أو مُهدِيه؛ يَشكره؛ فالمرأة تنتظر الشكر من المخاطَب، وهذا مدخلٌ آخر لتقوية منافذها على سلطة الخطاب؛ لذا قالت: "**فكُلْهَا في بَطنِك**"[(٢)]! ذاكِرةً الـــمُستقَرّ (البطن) دون الأعضاء التي ستَمُرّ بها الفرّوجة في مرحلة الأكل؛ تأكيدًا على طِيب الطعام، وأنّه مُستَساغُ الطعم طيّبه؛ وسيأتي عليه دفعةً واحدة!

بملاحظة الحمولات الدلالية للألفاظ الواصِفة للمرأة وأفعالها القولية والسلوكية (حضنتُها، تحتَ يَدَيّ، غذوتُها، ذبحتُها، شويتُها، كفّنتُها، النّذر، الدّفن، العِلم، التقديم للأكل، النُّصح)؛ يظهر أنها تعني الحنان، والتديُّن، والدهاء، والاستقلالية، والكرم، والإتقان، وكِبر السنّ، والمعرفة، والخِبرة المنافِسة، والعَوز، والوحدة. وأما الحمولات الدلالية للألفاظ الواصِفة للدجاجة التي كانت مَنشأَ السياق التخييلي لتلفُّظ المرأة (بيضة، محضونة، مولودة، فرّوجة، غُذّيت بأطيب الطعام، بلغتْ، ذُبحت، شُوِيت، كُفِّنت بالرقاقتين)؛ فهي ضعيفة، فتيّة، طيّبة النشأة، والهيأة، والطعم. في حين تتكثّف دلالة الإجلال والجُود ومحبّة الناس والله –تعالى– في الحمولات الدلالية للألفاظ الواصِفة للمخاطَب المشترِك المتفاعِل مع الـــمُتكلِّمة (سيّدي، أكرم بقعة على الأرض، بطن، لا تُسرف، إنّ الله لا يحب المسرفين).

من ذلك، يَظهر أنّ المرأة عفِيفةٌ، ضعِيفةٌ، مُنكسِرة، والدجاجة أثمن ما لديها وأطيبه، والمخاطَب هذا أجودُ مَن تَقصده بهديّتها التي هي سبيلٌ إلى تحقيق حاجتها بسخاءٍ نفسيٍّ لا يُوقِعها في معاناة مرارةِ السؤال المباشر، والتبرير، ومنح الإثباتات؛ مما يؤكّد القُرب النفسي في مسارات الخطاب بين المتكلِّمة والـــمُخاطَب المشترِك المتفاعِل معها ومَولاه؛ ويُبرّر سلوك المرأة التلفّظي؛ ابتداءً بِخَلْق السياق الـــمُوطِّئ لإنجاز مقاصدها، وانتهاءً

---

(١) الأعمال اللغوية، جون ر. سُورل، ترجمة: أميرة غنيم، مراجعة: محمد الشيباني، ١٢٢.

(٢) المنتقى من أخبار الأصمعي، تحقيق: التنوخي، ٤٤.

بالتقويم المقلوب الذي يُظهِر الاستِنكار، ويُبطِن الاستحسان والمدح بطريقة تحمل الإدهاش، والإثارة، واستملاح نجاح مسارات التخاطُب بين الطرفين. ومع أن المتكلِّمة بحاجة خطابِ الإقناعِ بحاجتها ومَقصِدها، إلا أنها فضلت استعمال خطاب الإمتاع، وكانت ذاتُها هي الطاغية في الخطاب[1]، وأما ذاتُ المخاطَب المستَهدَف، فلم تكن مهمَّشة بالمعنى الكامل، وإنما كانت مؤجَّلة؛ ليصبّ فيها تكثيف الذات المستحوِذ على الخطاب؛ مما يفاجئ المحلِّل بأنّ المخاطَب المُستَهدَف هو بُؤرة الخطاب، وهو المَطلوب لقلب الشكوى إلى شكر، والحاجة إلى استِغناء، والهِبة إلى استِيهابٍ وإنجازٍ للعطاء!

ومما يفاجئ المحلّل كذلك أنّ المخاطَب المُستهدَف قد تواطأ على التعاون مع المتكلِّمة كي تمتلِك السلطة الكافية من خلال مهاراتها التلفّظية؛ لإنجاح خطابها والاستحواذ على مقصِدها عبر الاستراتيجية التضامنية[2].

.....

الخاتمة

لقد انطلق هذا البحث في تحليله التداولي لخبر المرأة العجوز مع الصحابي/عبد الله بن جعفر بن أبي طالب -ﷺ- في (المنتقى من أخبار الأصمعي) للمقدسي من دراسة البِنى الرئيسة للسياق الذي أنشأتْه المرأة المتكلِّمة؛ لاحتواء تخاطُبها معه -ﷺ- ثم جاء تحليل الأفعال الكلامية المنتشِرة من الفعل الكلامي السردي الأوّل للمرأة وما احتواه من معانٍ صريحةٍ وضمنيةٍ أدّت إلى تأثيراتٍ بالقول مختلفةٍ ومُحقِّقةٍ لمقاصدها المُعلَنة والمُضمَرة، وانتهى البحث بتحليل توجيهاتها للاستلزامات المحادَثية وحمولاتها الصريحة والضمنية بما فيها من حِكَمِ التعاون الأربع. ومن ذلك يخلص البحث إلى النتائج الآتية:

١/تستوعب مواقف التخاطب الواقعية الابتكار التخاطُبي فيها كما في ابتكار المرأة المتكلِّمة للسياق الذي أدارت فيه مخاطبتَها لعبد الله بن جعفر -ﷺ- من خلال توظيف المِخيال السردي الجاذِب إلى لُغتِه، التقويميّ في مؤشّراته؛ ذلك الذي جعل المخاطَب المستهدَف يقبل وظيفتَه المُعدَّة له، ويُحسِن أداءها على المستوى التخاطُبي الإنجازي.

٢/شَحْن الأفعال الكلامية الصريحة بأفعال كلامية ضمنية يعمل على كشف المقاصد الرئيسة بكثافة؛ لأنّ الاستراتيجيات التأثيرية التوجيهية تستدعي تفاعل المخاطَب المشترِك

---

[1] ينظر: استراتيجيات الخطاب، عبد الهادي الشهري، ٢٤٣.

[2] ينظر: المرجع السابق، ٢٣٢-٢٤٤.

المتفاعِل مع الخِطاب؛ ليُبقِي على تأكيداتٍ مستمرّةٍ لقدرته على استيعاب الرسائل الضمنية، وإجادة تأويلها، وكأنّه في اختبارٍ تقويميٍّ لمهاراته التواصلية الإنجازية.

٣/تنافُس المتخاطِبَين في تشغيل الحِكَم الـمُحادَثية التي يقوم عليها مبدأ التعاون؛ بخاصة المناسبة بين التلميح من طرف المتكلِّمة والتصريح من طرف المخاطَب الـمُستَهدَف الذي وقع تحت ضغوط الشكوى التقويمية الضمنية في الفعل الكلامي السردي الأوّل؛ مما جعل وعي المخاطَب المستهدَف بالاستلزامات الـمُحادَثية يقوده إلى أنّه لا بدّ أنْ يُنجِز إزالة هذه الشكوى بالرِّضا مُتتبّعًا تفاصيلها في الفعل الكلامي؛ ليَمحوها محوًا تتابُعيًّا كاملاً.

٤/تواطؤ المخاطَب الـمُستهدَف مع المرأة المتكلِّمة على حِيازتها سلطة الخِطاب وتوجيه مساراته بما يعكس تراتُب الـمَنازِل ودرجاتها الـمُفتَرَضة في امتلاك السلطة على المستوى السطحي لعملية التّخاطُب، ويبدو أنّ ذلك كان بدافع التعاون على إنجاز الـمَقاصد البلاغية الصريحة بما فيها من مقاصد اجتماعية مُضمرة في المستوى العميق؛ مما يعني أنّ الإمتاع التّخاطُبيّ والإدهاش من وسائل النجاح في إنجاز الأفعال الكلامية عبر استثمار الاستراتيجية التضامنية التي تحقق الإقناع عبر الإمتاع.

ثبت المصادر والمراجع

١) استراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية، عبد الهادي بن ظافر الشهري، ط١، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ٢٠٠٤م.

٢) الأعمال اللغوية: بحث في فلسفة اللغة، جون ر. سُورل (John R. Searle)، ترجمة: أميرة غنيم، مراجعة: محمد الشيباني، دار سيناترا، تونس، ٢٠١٥م.

٣) البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، د.محمد العمري، ط٢، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ٢٠١٢م.

٤) تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية مَن حلَّها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها، الحافظ أبو القاسم، علي بن الحسن الشافعي؛ المعروف بابن عساكر، دراسة وتحقيق: محب الدين؛ أبي سعيد؛ عمر بن غرامة العَمروي، دار الفكر، بيروت، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

٥) التداولية اليوم: علم جديد في التواصل، آن روبول (Anne Reboul) وجاك موشلار (Jacques Moeschler)، ترجمة: د.سيف الدين دغفوس، د.محمد الشيباني، مراجعة: د.لطيف زيتوني، ط١، دار الطليعة، بيروت، ٢٠٠٣م.

٦) تهذيب الكمال في أسماء الرجال، الحافظ المتقن؛ جمال الدين؛ أبو الحجّاج؛ يوسف المزّي، تحقيق وضبط وتعليق: د.بشّار عوّاد معروف، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

٧) الخبر في الأدب العربي: دراسة في السردية العربية، د.محمد القاضي، ط١، كلية الآداب-منوبة-تونس، دار الغرب الإسلامي-بيروت، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

٨) الخبر في السرد العربي: الثوابت والمتغيرات، سعيد جبّار، ط١، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م.

٩) القاموس الموسوعي للتداولية، جاك موشلر (Jacques Moeschler) وآن ريبول (Anne Reboul)، ترجمة: مجموعة من الأساتذة والباحثين من الجامعات التونسية، إشراف: عز الدين المجدوب، مراجعة: خالد ميلاد، دار سيناترا، تونس، ٢٠١٠م.

١٠) لسان العرب، أبو الفضل؛ جمال الدين؛ محمد بن مكرم ابن منظور، تحقيق: عبد الله علي الكبير، ومحمد أحمد حسب الله، وهاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة، نحو١٤٠١هـ/١٩٨١م.

١١) مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، شمس الدين؛ أبو المظفر، يوسف بن قز أوغلي بن عبد الله؛ المعروف بسبط ابن الجوزي، تحقيق وتعليق: محمد رضوان عرقسوسي، وعمّار ريحاوي، ط١، دار الرسالة العالمية، دمشق، ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م.

١٢) المصطلحات المفاتيح لتحليل الخِطاب، دومينيك مانغونو (Dominique Maingueneau)، ترجمة: محمد يحياتن، ط١، منشورات الاختلاف-الجزائر، الدار العربية للعلوم-بيروت، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٨م،

١٣) معجم السرديات، محمد القاضي وآخرون، إشراف: محمد القاضي، ط١، دار محمد علي-تونس، دار الفارابي-لبنان، مؤسسة الانتشار العربي-لبنان، دار تالة-الجزائر، دار العين-مصر، دار الملتقى-المغرب، ٢٠١٠م.

١٤) مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، تحقيق وضبط: عبد السام محمد هارون، دار الفكر، (د.م)، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

١٥) المنتظم في تاريخ الملوم والأُمم، أبو الفرج؛ عبد الرحمن بن علي بن محمد ابن الجوزي، دراسة وتحقيق: محمد عبد القادر عطا، ومصطفى عبد القادر عطا، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

١٦) المنتقى من أخبار الأصمعي، القاضي أبو محمد؛ عبد الله بن أحمد الربعي، انتقاء: الحافظ ضياء الدين؛ محمد بن عبد الواحد المَقدسي، تحقيق: محمد مطيع الحافظ، ط١، دار طلاس، دمشق، ١٩٨٧م.

١٧) المـُنتَقى من أخبار الأصمعي، الإمام/ضِياء الدِّين المقدسيّ (انتقاهُ من كتاب أخبار الأصمعي للإمام/الرّبعيّ)، نشر وتحقيق وتقديم: عِزّ الدّين التّنوخيّ، ط١، المجمّع العلميّ العربي، دمشق، ١٣٥٤هـ.

١٨) نظرية أفعال الكلام العامة: كيف نُنجز الأشياء بالكلمات، جون أوستين (John Austin)، ترجمة: عبد القادر قينيني، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء،١٩٩١م.